

محاضرة

ثبات عقيدة السلف وسلامتها من التغيرات

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليهم ورحمة الله وبركاته...

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وسلم تسليمًا كثير.

أما بعد؛ فإنّ للعقيدة الإسلامية الصافية النقية المتلقاة من الكتاب والسنة مكانةً عاليةً ورفيعةً في الدّين؛ بل إنّ منزلتها فيه منزلة الأساس من البنيان، والقلب من الجسد، والأصل من الشجرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم].

فهذا شأن العقيدة، شأنٌ عظيم، ومكانةٌ عالية، ومنزلةٌ رفيعة، فالعقيدة أمرٌ مستقرٌّ في نفوس أهلها، وكامنٌ في قلوب أصحابها، فمنها ينطلقون، وعليها يعولون، ولأجلها يُناضلون، سما قدرها في نفوسهم، وعلت مكانتها في قلوبهم، فتمكّنت منها القلوب، واستقرّت في النفوس، فترتّب على ذلك وانبنى عليه صلاحٌ في السُّلوك، واستقامةٌ في المنهج، وتمامٌ في الأعمال، ودأبٌ على الطّاعة والعبادة، ولزوم أمر الله تبارك وتعالى، وكلّما كانت العقيدة أعظم تمكّناً في نفوسهم، وأقوى استقراراً في قلوبهم، كان ذلك دافعاً لهم لكل خير، معيناً لهم على كل فلاحٍ وصلاحٍ واستقامةٍ.

ومن هنا عظمت عنايتهم بها، وزاد اهتمامهم بها اهتماماً وعنايةً مقدّمة على كل اهتمامٍ وعنايةٍ، هي عند أهلها أهمُّ من طعامهم وشرابهم ولباسهم وسائر شؤونهم؛ لأنّها هي حقيقة حياة قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهي حياة قلوبهم حقيقة، وأساس نماء أعمالهم، واستقامة سلوكهم، وحسن نهجهم وطريقهم، ولهذا عظمت عنايتهم بها علماً واعتقاداً، وما يتبع ذلك ويترتّب عليه من جدٍّ واجتهادٍ واستقامةٍ وطاعةٍ لله -تبارك وتعالى-.

إنّ العقيدة الإسلامية الصّحيحة الصافية النقية هي أهمُّ المهمّات، وآكد الواجبات، والعناية بها ينبغي أن تُقدّم على كلّ عنايةٍ واهتمام، وعندما تتأمل سيرة سلفنا الأخيار -رحمهم الله وأسكنهم الجنّة، وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء- نرى عظم عنايتهم بالعقيدة، وشدة اهتمامهم بها، وأنهم يقدّمونها في الاهتمام والعناية على كلّ الأمور، فهي أعظم مطالبهم، وغاية مقاصدهم، وأنبّل وأشرف أهدافهم، وقد

تنوّعت عنايتهم بالعقيدة عبر مجالاتٍ مختلفةٍ وجهودٍ متنوّعة، ومن عنايتهم بها وهو من أسباب حفظها وثباتها وبقائها، تأليفهم فيها المؤلفات النّافعة، والكتب المفيدة التي تُقرّر العقيدة، وتبينها وتوضحها وتذكر شواهدا ودلائلها، وتذبّ عنها كيد الكائدين، واعتداء المعتدين، وتعطيل المعطلين، وتحريف الغالين.. ونحو ذلك ممّا قد يُحَاك حولها وتُسْتَهْدَف به، فقام السّلف -رحمهم الله- في هذا المجال العظيم بجهود ضخمة، وأعمال كبيرة، خدمةً للعقيدة، ونصرةً لها، وقيامًا بالواجب العظيم تجاهها، وكتبوا فيها بيانًا وتوضيحًا واستشهادًا واستدلالًا لمئات الكتب؛ بل الآلاف، بين مطوّل ومختصر، وبين شاملٍ ومختصّ في جانب من جوانبها، بين مُؤَصِّلٍ للحق والصواب، وراذٍ على المخالف المرتاب، ثم اللاحق منهم يأخذ العقيدة عن السابق واضحةً وضوح الشمس في [رابعة] النهار، بينة لا لبس فيها ولا غموض؛ لصحة شواهدا، وسلامة دلائلها وقوتها، ووضوحها وبيانها، فتوارثها المؤمنون المتبعون جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كلّ جيل يأتي يتعاهدا تعاهداً عظيماً، ويرعاها رعاية كبيرة ثم يؤديها إلى من بعده كما هي دون تغييرٍ أو تبديلٍ أو تحريفٍ أو نحو ذلك، فيأتي الجيل الذي بعده فيعتني بها عناية أسلافه، ويهتم بها اهتمام من قبله فيحافظ عليها، وهكذا توارثتها القرون جيلاً بعد جيل، ولا تزال طائفةً من أمة محمد ﷺ على الحق منصورةً لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى أن تقوم الساعة.

وموضوع هذه الكلمة -أيها الإخوة- هو عن ثبات هذه العقيدة، عقيدة السلف الصالح رحمهم الله وسلامتها من التغيّرات عبر عمر مديد وزمان طويل بقيت سالمةً متماسكةً، فالعقيدة التي في قلوب أهل السنة الملتزمين بالكتاب والسنة في هذا الزمان، هي العقيدة التي دعا إليها النبي -عليه الصّلاة والسّلام-، وهي العقيدة التي كان عليها الصحابة [ومن تبعهم بإحسان]، وتناقلوها فيما بينهم، وتوارثوها إلى أن وصلت إلى زماننا هذا صافية نقية.

نعم ضلّ عنها أقوامٌ، وانحرف عنها أناسٌ كثيرون، تفرقت بهم السبل، وحادوا عن الجادة الصحيحة والطريق المستقيم، وقد أشار النبي الكريم -عليه الصّلاة والسّلام- إلى أن هذا سيقع وسيكون، فقال: «إنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي وسنن الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(١)، وقال في الحديث الآخر: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا

(١) سنن الترمذي: كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦). وقال: حسن صحيح.

سنن أبي داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٧). سنن ابن ماجه: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث

واحدة^(١)، فرقة واحدة سلم لها دينها، واستقام لها منهجها، وصح لها معتقدها؛ لأنها أخذته من نبعه الصافي، ومعينه الذي لم يشبه أي كدر، أخذته من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، فكان حظهم في الاعتقاد وسائر شؤون الدين السلامة والعلم والحكمة والرّفعة، وكانوا أحق بها وأهلها؛ لأنهم أخذوها من مصدرها ومنبعها؛ كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، سلّمهم الله فلم تخطفهم الأهواء، ولم تتلفهم الشُّبُهات، ولم يميلوا إلى عقولهم أو آرائهم أو أذواقهم أو مواجيدهم، أو نحو ذلك طلباً لمعرفة الاعتقاد الصحيح، وإنما عولوا على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أيها الإخوة، أحدثكم في هذه الأمسية عن ثبات هذه العقيدة السلفية -عقيدة أهل السنة والجماعة- وسلامتها من التغير والتبدل والتبديل والانحراف، وبقيت في نفوس أهلها سالمة نقية، وما من شك أن هناك أسباباً كثيرة ومتعددة كانت داعيةً لبقاء هذه العقيدة وسلامتها واستقرارها في نفوس أهلها بعد توفيق من الرب ﷻ؛ فهو الموفق وحده والمان، بيده الفضل يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فتوفيق الله وتسديده وهدايته وإعانته لهم هو أعظم أمر تحققت به سلامتهم، توفيق الله لهم، وحفظه لهم وكلاءته لهم، وعنايته بهم ﷻ وكان به بقاء هذه العقيدة في نفوسهم، والله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين.

ولهذا -أيها الإخوة- ينبغي بل يجب على كل مسلم أن يقوي صلته بالله، وأن يسأله دائماً الإعانة والتوفيق والسداد والسلامة؛ لأن الأمر بيده تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود]. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]. فتوفيق الله وحفظه وهدايته وإعانته به يستقيم للإنسان أمره، ويصلح عمله وتزكو نفسه، ويتحقق فلاحه في الدنيا والآخرة.

لا شك أن هناك أسباباً كثيرة بعد توفيق الرب -جل وعلا- وحفظه سبحانه كانت سبباً لثبات هذه العقيدة وبقائها واستقرارها في نفوس أهلها، وسبباً لسلامة أهلها من التغير والتلون والانحراف، ولا شك أيضاً أن من النافع للمسلم والمفيد له في حياته أن يقف على الأسباب التي بها ثبات العقيدة

رقم (٤٢، ٤٣). قال الألباني: صحيح. مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر وحزمة الزين): حديث العرياض بن سارية، حديث رقم (١٧٠٧٩).

(١) سنن أبي داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، حديث رقم (٤٥٩٧). سنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، حديث رقم (٣٩٩٢). قال الألباني: صحيح.

وسلامتها؛ ليتعاهد في نفسه هذه الأسباب، وليرعاها أحسن الرعاية مستعيناً على ذلك كله بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

وقد تلخّص لي من خلال التأمل والنظر لكلام أهل العلم -رحمهم الله- في هذا الباب العظيم أن هناك أسباباً كثيرة أدّت إلى ثبات العقيدة في نفوس أهلها وأصحابها، وأدّت إلى سلامتها من التغير والانحراف، وأوجزها لكم في هذا اللقاء في نقاط عديدة:

الأول: اعتصام أهلها بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإيمانهم بجميع ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام-، واعتقادهم الكامل أن ما في الكتاب والسنة لا يجوز ترك شيء منه؛ بل الواجب على كل مسلم الإيمان والتصديق بكل ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فأمنوا بجميع النصوص المشتملة على الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته، وأنبيائه، واليوم الآخر، والقدر، ونحو ذلك. آمنوا بها إيماناً مجملاً ومفصلاً:

إيماناً مجملاً بكل ما أخبر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- به من أمور الإيمان.

وإيماناً مفصلاً بكل ما بلغ علمهم من ذلك في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، هذا شأنهم مع جميع نصوص الكتاب والسنة، سلّموا بالجميع، وآمنوا بالجميع، وشأنهم كما قال بعض السلف: "من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم"، فسلموا لكل ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا فإن من كان معتصماً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ معوّلاً عليهما، معتمداً عليهما، من كان هذا شأنه فإنه بإذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يكون حليفه الثابت والسلامة والاستقامة والبعد عن الانحراف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "جماعُ الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرّشاد والغى، وطريق السّعادة والنّجاة وطريق الشّقاوة والهلاك؛ أن يجعل -أي المسلم- ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب إتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان، فيصدق بأنه حقٌ وصدقٌ، وما سواه من كلام سائر النّاس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطلٌ، وإن لم يعلم هل هو وافقه أو خالفه؛ لكون ذلك الكلام مجملاً لا يُعرف مراد صاحبه، أو قد عُرف مراده، ولكن لم يُعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه، فإنه يُمسك فلا يتكلّم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه

دليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ^(١).

هذه خلاصة طريقة أهل السنة والجماعة - رحمهم الله - في هذا الباب العظيم، يُعولون على الكتاب والسنة، وبهذا التعويل نالوا السلامة والثبات، وكما قال شيخ الإسلام رحمه الله في مقام آخر؛ بل كان كثيرًا ما يقول: "من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا ما جاء به الرسول ﷺ^(٢)"، ويقول ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية: "كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول ﷺ^(٣)"، أي أن هذا غير ممكن، وغير متأٲ.

فإذا تعويلهم رحمهم الله على ما جاء في كتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، واعتمادهم على ما جاء فيهما كان سببًا عظيمًا لثبات عقيدتهم، ولم يكن أحدٌ من أهل السنة والجماعة رحمهم الله يُنشئ اعتقادًا من قبل نفسه، أو يأتي باعتقادٍ أو دينٍ من رأيه وذوقه وفكره، والذين يفعلون ذلك هم أهل الأهواء، ولهذا يُفارقهم الثبات ويكثر فيهم التنقل والتلون، كما سيأتي بيان ذلك. أما أهل السنة فإنه لم يكن أحدٌ منهم ينشئ شيئًا من الاعتقاد من قبل نفسه، بل جميعهم يُعولون ويعتمدون على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وهنا أنقل كلمةً رائعةً غايةً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول فيه: "ليس الاعتقاد لي، ولا لمن هو أكبر مني"^(٤)، بل الاعتقاد يُؤخذ عن الله ﷻ ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة، يُؤخذ من كتاب الله، ومن أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما، من الأحاديث المعروفة، وما ثبت عن سلف الأمة"^(٥).

ويقول أيضًا رحمه الله: "اعتقاد الشافعي رحمه الله واعتقاد سلف الإسلام، كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين، وكذلك أبو حنيفة رحمة الله عليه، فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافقٌ لاعتقاد هؤلاء، واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نطق به

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/١٣٥-١٣٦).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (ص: ٩٠).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٨).

(٤) أي: ليس شأنِي أن آتي باعتقاد من نفسي أنشئه وأخترعه، ولا أيضًا من هو أكبر مني كالإمام أحمد والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الدين، لم يكن أحدٌ منهم ينشئ اعتقاداً من قبل نفسه.

(٥) مجموع الفتاوى (٣/٢٠٣).

الكتاب والسنة" (١).

إذاً هذا الأصل الأول أو النقطة الأولى من أسباب ثبات هذه العقيدة في نفوس أهلها: الاعتماد على الكتاب والسنة، وليُعلم أنه وبدون الاعتماد عليهما لا سبيل إلى الثبات، ولا سبيل إلى السلامة والاستقامة.

ثانيًا: اعتقادهم - أي: السلف رحمهم الله - أن الكتاب والسنة مشتملان على المعتقد الحق لا نقص فيهما بأي وجه من الوجوه، فإن المعتقد الحق يُبين تمام البيان، ووضح كامل الوضوح في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: عقيدة وعبادة وسلوكًا، ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالكتاب والسنة يُبين فيهما كل ما يحتاج إليه الناس مما يتعلّق بالاعتقاد، وما يتعلّق بالعبادة، وما يتعلّق بالمعاملة والأخلاق والسلوك؛ بل كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُذرهم شر ما يعلمه لهم» (٢).

فلما آمن أهل السنة إيمانًا كاملاً، واقتنعوا اقتناعًا تامًا بأن دينهم اعتقادًا وعبادةً وسلوكًا يُبين في القرآن والسنة غاية البيان، التزموا تمام الالتزام، وعوّلوا كامل التعويل على ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولم يحتاجوا أن يرجعوا في هذا الباب إلى غير ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ صلوات الله وسلامه عليه، فثبتوا تمام الثبات على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فتحققت لهم بذلك السلامة التامة الكاملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ رسول الله ﷺ بيّن جميع الدين؛ أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فإنَّ هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملاً" (٣).

ويقصد بهذا الأصل أي التعويل التام، والاعتماد الكامل على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لأنَّهما قد بين فيهما الدين كله عقيدةً وعبادةً وسلوكًا.

القرآن والسنة يُبين فيهما الدقائق اليسيرة المتعلقة بالأداب، كآداب قضاء الحاجة، وآداب الطهارة، وآداب المعاملة.. ونحو ذلك، بينت في الكتاب والسنة غاية البيان، فهل من الممكن أن تُبين فيهما هذه

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٦).

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم: (١٨٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٥٥).

الآداب الدقيقة، ويُترك الاعتقاد دون أن يُبين؟!

هذا مُحال؛ كما قال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ اللهُ: " مُحالٌ أن يكون النبي ﷺ بيّن للأمة كل شيءٍ حتى الخِراءة ولا يكون بيّن لهم التوحيد".

ولهذا فالقرآن والسنة مشتملان على الخير كله، والهدى كله، والرّشاد جميعه في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، ولهذا حظ الإنسان من السلامة والاستقامة بحسب حظه من الاعتماد على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ثالثاً: من أسباب ثبات العقيدة في نفوس أهلها؛ أن أهل السنة بناء على ما سبق فقد استقر في نفوسهم أنهم في حال وقوع أي نزاع أو خلاف أو نحو ذلك لا يُعولون على شيء، ولا يرجعون إلى شيء إلا إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وهم يعلمون علم يقين أن النزاع والخلاف ونحو ذلك لا يتم حله ورفع الإشكال فيه إلا بالاعتماد على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء].

وما من شك أن من كان هذا شأنه معولاً في الأمور التي قد يقع فيها خلاف بين الناس على كتاب ربه وسنة نبيه عليه الصّلاة والسّلام، لاشك أن من كذلك فإن حليفه الثبات والسلامة وعدم الاضطراب والتذبذب، فهم دائماً أبداً يُعولون في أمور النزاع وفيما يختلف فيه الناس على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومن المعلوم والمتقرر أن كل نزاع يقع أو خلاف يوجد لا حلّ له بين الناس إلا بالاعتماد على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لأنّ الآراء متباينة، والعقول مختلفة، ووجهات النظر متباعدة، فلا مجال لحل النزاع، ورفع الخلاف إلا إذا عاد الجميع عودةً صادقةً ورجعوا رجوعاً حميداً إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. فهذا سببٌ عظيمٌ من أسباب ثبات أهل الحق على الحق.

رابعاً: سلامة فطرهم، والفطرة نعمةٌ من الله ﷻ، ومنه منه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على عباده، وهو -جل وعلا- تفضل على عباده ومن عليهم بأن خلقهم جميعهم على الفطرة، كما قال رسول الله -عليه الصّلاة والسّلام-: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»^(١)، فخلقهم على الفطرة، وأهل السنة بقيت فطرتهم سالمةً لم تتغير، حفظها الله لهم من التغير والتبدل والانحراف، وبقية الناس تلوثت فطرهم، ولحقها من الانحراف ما لحقها، بين مُقل ومستكثر.

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه...، حديث رقم (١٣٥٨، ١٣٥٩). مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل

مولود يولد على الفطرة...، حديث رقم (٢٦٥٨).

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(١)، وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف]، فالشيطان وجنده صرفوا الناس وحرفوهم عن فطرتهم.

ولهذا فإن من أسباب الثبات أن يجتهد الإنسان في المحافظة على سلامة فطرته ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم]، وسلامة الفطرة مرتبطة بسلامة المصدر، فإذا كان صاحب الفطرة السليمة مستنداً ومعتمداً على كتاب ربه وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن فطرته لا تتبدل، وإن سلم فطرته للأهواء المردية والشبهات المفسدة والآراء المنحرفة والتكلفات البعيدة ونحو ذلك انحرفت فطرته.

خامساً: صحة عقول أهل السنة والجماعة؛ بل إنهم أحسن الناس عقولاً، وأسلمهم رأياً وفكراً ومنهجاً، عقولهم راجحة، ليس فيها غلوٌ أو جفاء كما هو الشأن في غيرهم من أهل الأهواء والبدع، فأهل السنة ليس عندهم في العقول غلوٌ كما ترونه واضحاً في أرباب الكلام والمتفلسفة ومن لف لفهم، وسار على منهجهم تجده يُنحّي الكتاب والسنة جانباً، ويعتمد تمام الاعتماد على عقله وفكره ورأيه، فما رآه صحيحاً بعقله اعتمده، وما رآه بخلاف ذلك تركه، وإن كان قاله الله أو قاله رسول الله ﷺ؛ لأنّ المعول عندهم والعبرة على ما توصلت إليه عقولهم وآراؤهم.

ومن المعلوم أنّ عقول الناس ليست على عقل رجل واحد، ولهذا لما كان الاعتماد على العقل عند فئات من الناس، كان ذلك سبباً لكثرة الانحراف وكثرة الآراء والمذاهب؛ لأنّ العقول مختلفة، وكما قال بعض السلف: "لو كانت الأهواء هوى واحداً لقل: إنه الحق، ولكنها أهواء"، وكذلك نقول: لو كانت العقول عقلاً واحداً لقل: إنه الحق، ولكنها عقولٌ مختلفة. وهؤلاء يقدمون عقولهم على ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويجعلون العمدة العقل عليه يعولون، قد ألزمهم أحد السلف قديماً بأن قال: "من لازم قول هؤلاء أن يقول أحدهم أشهد أن عقلي رسول الله" بدل أن يقول أشهد أن محمداً رسول الله؛ لأنّ المعول والمعتمد عليه عنده عقله. فهذا جانب منحرف في العقل، وهو جانب الغلو في العقل ورفع فوق مكانته.

وهناك جانب آخر في العقل منحرف وهو جانب الجفاء، وهذا يكثر في ضلال المتصوفة وجهالهم

(١) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥).

الذين ينحون عقولهم جانباً، ثم يدخلون باسم التصوّف إلى أمور يُسمّون بعضها بال جذب أو الشحط أو الجنون.. أو نحو ذلك، فيقعون في أنواع قبيحة من الانحرافات لا يقبلها عقل ولا يرتضيها فكرٌ ويأنف منها كل إنسان، يقعون فيها بسبب تنحيتهم الكاملة للعقل.

بينما أهل السنة - كما قدمْتُ - عقولهم راجحة صحيحة، عقولهم سليمة، فلا يتجاوزون بالعقل حده، ولا أيضاً يُنحونه ويُلغونه؛ بل يضعون العقل في حدوده وأطره المحدّدة، وكما أن سمع الإنسان له حدٌ معين لا يمكنه أن يتجاوزه، وكذلك بصره وسائر حواسه، فكذلك العقل.

فالعقل له حدٌ معين، فمن حاول أن يُقحم عقله في غير حدوده ومجاله يضلُّ كما ضلُّ أقوامٌ كثيرون. ولهذا صحت عقول أهل السنة والجماعة وسلمت من الانحراف؛ لأنهم أعملوها في حدودها المعيّنة ولم يهملوها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] فهم أولو الألباب الصحيحة والعقول الراجحة، وضعوا عقولهم في حدها المحدود ومجالها المعين، دون غلو أو جفاء، أو إفراط أو تفريط، أو زيادة أو نقصان، فهذا أمرٌ عظيم كان من أسباب ثبات هؤلاء على الحق.

سادساً: نفوس أهل السنة اطمأنت بهذه العقيدة غاية الطمأنينة، يشعر كل واحد منهم براحة في قلبه، وطمأنينة في نفسه، وأنس وسعادة، بل وفرح ولذة بهذا المعتقد الحق الذي أنعم الله تبارك وتعالى عليه به، وهذا أمرٌ لا يجده أيُّ صاحب هوى، وهيهات أن يجده، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

ففي نفوسهم طمأنينة تامة، وراحة عظيمة بهذا المعتقد الحق، الذي تلقّوه من كتاب ربهم، وسنة نبيهم ﷺ، وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الصواعق المرسلة»: "سكون القلب إلى شيء ووثوقه به، وهذا لا يكون إلا مع اليقين؛ بل هو اليقين بعينه، ولهذا تجد قلوب أصحاب الأدلة السمعية - يعني أهل السنة - مطمئنة بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته واليوم الآخر، لا يضطربون في ذلك ولا يتنازعون فيه" (١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وأما أهل السنة والحديث فما يُعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع

المحن، وفُتِنُوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين" (١).

ويقول عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللهُ: "واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا، ولا عُلِمَ به والله الحمد، وإنما تكون لمن له فسادٌ في العقد، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم" (٢).

فهذا من الأسباب العظيمة التي أدت إلى ثبات أهل الحق، مطمئنةً بالحق نفوسهم، ساكنةً به قلوبهم، مرتاحةً تمام الارتياح.

فلماذا عنه يعدلون؟ ولماذا لغيره يطلبون وهم به مطمئنون غاية الاطمئنان، مرتاحون غاية الارتياح؟
سابعاً: من أسباب ثباتهم على الاعتقاد الحق: ارتباطهم بفهم السلف الصالح؛ الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، فهم مع الأمور المتقدمة يُعَوِّلُون في فهم النصوص ومعرفة دلالتها على ما جاء عن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان؛ لأن الأفهام قد يجنح بعضها وقد ينحرف؛ لكن من أخذ الدين غصاً طرياً من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مباشرة مع زكاء في القلب، وصحة في العقل، وحسن رغبة وصدق، من كان هذا شأنه كان حقيقاً بالعلم والسلامة والحكمة، ولهذا يرتبط أهل السنة والجماعة غاية الارتباط بفهم الصحابة للنصوص والأدلة ولما جاء عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يقول السجزي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الرد على من أنكر الحرف والصوت» واصفاً أهل السنة: "هم الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السلف الصالح -رحمهم الله- عن الرسول ﷺ، أو عن أصحابه رَحِمَهُمُ اللهُ فيما لم يثبت فيه نص في الكتاب ولا عن الرسول ﷺ؛ لأنهم رَحِمَهُمُ اللهُ أئمة، وقد أمرنا بإقتداء آثارهم واتباع سنتهم، وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى إقامة برهان، والأخذ بالسنة واعتقادها مما لا مرية في وجوبه" (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "ولا تجد إماماً في العلم والدين، كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ومثل الفضيل وأبي سليمان ومعروف الكرخي وأمثالهم، إلا وهم مُصرِّحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مُقتدين بعلم الصحابة، وأفضل عملهم ما كانوا فيه مُقتدين بعمل الصحابة، وهم يرون أن الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل

(١) مجموع الفتاوى (٥٠/٤).

(٢) نقله ابن القيم في الجواب الكافي (ص: ١٩٨).

(٣) الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص: ٩٩).

والمناقب" (١).

ويقول الأجري - رَحِمَهُ اللهُ - في كتابه الشريعة: "علامة من أراد الله - عز وجل - به خيراً سلوك هذه الطريق، كتاب الله - عز وجل - وسنن رسولهِ ﷺ، وسنن أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء؛ مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهبٍ لا يذهب إليه هؤلاء العلماء" (٢).

وهذا يوضح لكم الارتباط التام في أهل السنة والجماعة لما كان عليه السلف الصحابة ومن اتبعهم بإحسان.

ويقول ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ كلمة جميلة في هذا الباب: "ولو أردنا رحمك الله أن نتقل عن أصحاب الحديث، ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم؛ لخرجنا من اجتماعٍ إلى تشتت، وعن نظامٍ إلى تفرق، وعن أنسٍ إلى وحشة، وعن اتفاقٍ إلى اختلاف" (٣).

وهذا يوضح أنه لا يمكن أن يكون الثبات إلا بالارتباط التام بفهم السلف الصالح رحمهم الله، والله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يقول: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثامناً: من أسباب ثباتهم على الحق واستقامتهم عليه: توسطهم رحمهم الله واعتدالهم، كما قال الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: شهوداً عدولاً، فكانوا وسطاً لا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، ولا زيادة ولا نقصان، وتوسطهم هو لزومهم للحق واستقامتهم وثباتهم عليه، ومجانبتهم للطرق المنحرفة، سواء ما كان منها مائلاً إلى الغلو أو إلى الجفاء، فتوسطوا في الحق واستقاموا عليه، وثبتوا عليه بثبوت الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لهم، فكان هذا سبباً عظيماً من أسباب ثباتهم، وخيار الأمور أوسطها لا تفريطها ولا إفراطها، وكلما كان الإنسان متوسطاً معتدلاً كان أحرى بالحق وأولى به.

[قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إن دين الله بين الغالي والمقصر، فعليكم بالمرقة الوسطى؛ فإن بها

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٨).

(٢) الشريعة (١/ ٣٠١).

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص: ١٦).

يخلق المقصر، وإليها يرجع الغالي".

والتوسط لا يكون أبدًا إلا بلزوم الحق وعدم الزيادة فيه أو النقص منه، فمن كان كذلك كان أولى بالحق، وأبعد من الانحراف، وأحق بالثبات والسلامة، [ولهذا قال -ﷺ: "الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلَغُوا" رواه البخاري^(١). وقال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «عليكم هديًا قاصدًا، فإنه من يشاد الدين يغلبه» رواه أحمد^(٢).

قال ابن القيم -رحمه الله: "فدينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف والأوساط محميةً بأطرافها فخير الأمور أوسطها"^(٣).

تاسعًا: عدم تقديمهم لعقولهم وآرائهم وأذواقهم على ما جاء في الكتاب والسنة، وهذا أمرٌ أيضًا سبقت الإشارة إلى جانب منه.

وأنقل هنا كلامًا لأبي المظفر السمعاني، نقله عن التيمي في كتابه الحجة، وابن القيم في كتابه الصواعق، وهو كلامٌ عظيمٌ متين في هذا الباب، يقول فيه السمعاني: "وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنة وطريق النقل، فأورثهم الاتفاق والإتلاف، وأهل البدع أخذوا الدين من عقولهم، فأورثها التفرق والاختلاف، فإن النقل والرواية من الثقات والمتقنين قل ما تختلف، وإن اختلفت في لفظة أو كلمة فذلك الاختلاف لا يضُرُّ في الدين، ولا يقدح فيه، وأما المعقولات والخواطر والآراء فقل ما تتفق، بل عقل كل واحد أو رأيه وخاطره يُري صاحبه غير ما يرى الآخر"^(٤).

فهذا من أسباب ثباتهم: أنهم لا يقدمون عقلاً أو رأياً أو وجدًا أو ذوقًا، أو نحو ذلك على كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

وأما أهل الأهواء فإنهم يُقدِّمون هذه الأمور على الكتاب والسنة، منهم من يُقدِّم العقل، ومنهم من

(١) البخاري: كتاب الرقائق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم: (٦٤٦٣).

(٢) مسند أحمد: (٣٥٠/٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٤٠٨٦).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٢٠١).

(٤) مختصر الصواعق (ص ٥١٨).

يُقدم الرأي، ومنهم من يُقدم الذوق والوجد، ومنهم من يُقدم الحكايات والمنامات، ومنهم من يُقدم ما تهواه نفسه على ما أمره به ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يتفاوتون ولكل واحد منهم منهجه وطريقه ومسلكه، أما أهل السنة فقد سَلِمُوا من هذه الآفات كلها، وثبتوا على كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، فكان ذلك سبباً عظيماً من أسباب ثباتهم، [ومن أخذ من المنهل الأول والمعين الصافي وجد بقية الموارد كدرة].

عاشراً: حسن صلتهم بالله وشدة ارتباطهم به واعتمادهم عليه، وهذا أمرٌ أشرتُ إليه في التقديم والتمهيد؛ لأنَّ التوفيق بيده ﷺ، فحسنت صلتهم بالله، وقوي اعتمادهم عليه، يسألونه ويستعينون به، ويدعون، ويطلبون منه الثبات، متبعين في ذلك نهج نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

وكان من دعائه ﷺ إذا خر لله ساجداً أن يقول: «اللَّهُمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»،^(١) هكذا يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في سجوده، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسُّدَادَ»،^(٢) ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغَنَى»،^(٣) ويقول في دعائه «اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ»^(٤) ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ آتِ نَفُوسَنَا تَقْوَاهَا، زَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلَحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلَحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»،^(٥) ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ زِينَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هِدَاةَ مَهْتَدِينَ»^(٦) ويقول في دعائه: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم». ^(٧)

وأتباعه صلوات الله وسلامه عليه يلزمون نهجه، ويرتبطون بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كل وقت وحين،

(١) سنن الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث رقم (٢١٤٠)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧٢٥).

(٣) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧٢١).

(٤) سنن الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث رقم (٢١٤٠)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٥) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧١٦).

(٦) سنن النسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٦٢)، حديث رقم (١٣٠٥، ١٣٠٦)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٧) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ودعائه بالليل، حديث رقم (٧٧٠).

يسألونه الثبات والسداد والإعانة والتوفيق، لهذا وفّقهم الله وأعانهم وسددهم، وحفظهم وكلاهم برعايته وعنايته، وحفظه ﷺ، والتوفيق بيده وحده.

ثم إنّ هذا الارتباط منهم بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أورثهم صلاحًا في العبادة، واستقامة في السلوك والأخلاق، ولهذا فإنّ من فوائد العقيدة الحميدة وآثارها العظيمة أنها تنعكس على عمل الإنسان وسلوكه قوة ورفعة ونماء وزكاء، وهذا من بركة العقيدة الصحيحة، ومن منافعها وفوائدها العظيمة، أما العقيدة المنحرفة فإنّ لها شؤماً على صاحبها، ولهذا يتبع فساد العقيدة فساد العمل وفساد السلوك، وهذا من شؤم الاعتقاد، ومن يتبع وبخاصة رؤوس الباطل ودعاة الضلال يجد هذا واضحاً جلياً فيهم، لا يرى فيهم عناية بالعبادة واهتماماً بها ومحافظة عليها ولا يرى أيضاً فيهم الخلق الواضح الكامل البين، وإن وجد فيهم شيء من ذلك، فما عند أهل السنة والحق والاستقامة من ذلك أعظم وأعظم.

وهذا من آثار الاستقامة على العقيدة والارتباط بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

يقول أحد أهل العلم: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإن أراد بعبد شراً فتح عنه باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل.

حادي عشر: يقينهم التام بهذا المعتقد الحق الذي استقاموا عليه، وبعدهم عن تعريضه للخصومة والجدل، وهذا جانب غاية في الأهمية للثبات على المعتقد الحق؛ أن يكون صاحبه مقتنعاً به، وأهل السنة لديهم قناعة تامة وثقة كاملة بما هم عليه من دين ومعتقد، ولهذا لم يحتاجوا كغيرهم إلى عرض ما عندهم على آراء الرجال وعقولهم، بينما صاحب الهوى والبدعة تجده يتنقل بين الرجال، يسألهم ويستشيرهم فيما هو عليه من دين؛ لأنه في شك منه وعدم ثقة واطمئنان، أما صاحب السنة فهو على يقين تام، لا يقبل في عقيدته خصومة ولا جدلاً، فهو مقتنع بها غاية الاقتناع، مطمئن بها غاية الاطمئنان لأنّ ارتباطه بها ارتباطاً بكتاب ربه وسنة نبيه ﷺ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة نبيه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فهو مطمئن غاية الاطمئنان، وواثق غاية الثقة بما عنده من معتقد، لم يحتج في شيء منه إلى عرضه على جدلي أو مُخاصم أو نحو ذلك، [بل هو ماضٍ في عقيدته على وتيرة واحدة، وعلى طريق واحد من أول أمره إلى نهايته، لا تردد ولا اضطراب، ولا تنقل ولا ارتياب].

أما أهل الباطل فشأنهم آخر، قال الله تعالى: ﴿مَا صَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ

﴿الزخرف﴾، فتجدهم يضطربون ويرتابون، ويعرضون ما عندهم على آراء الرجال وعقولهم، ولهذا

تراهم يُكثرون التنقل في الدين.

وأُنقل لكم هنا في هذا المقام جملةً من الآثار عظيمة النفع عن السلف رحمهم الله تعالى.

قال حذيفة لأبي مسعود: "إن الضلالة حق الضلالة، أن تعرف ما كنت تُنكر، وتُنكر ما كنت تعرف،

وإياك والتلون في دين الله، فإن دين الله واحد" ^(١).

وقال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل" ^(٢).

وقال أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "من عمل بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح، ومن لم يعد كلامه من عمله

كثرت خطاياها، ومن كثرت خصومته لم يزل يتنقل من دين إلى دين" ^(٣).

وقال معن بن عيسى: "انصرف مالكٌ يومًا من المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجلٌ يقال له

أبو الجويرية - كان يتهم بالإرجاء - فقال: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئًا أكلمك به وأحاجك وأخبرك

برأيي، قال: فإن غلبتني؟ قال: فإن غلبتك اتبعني، قال: فإن جاء رجلٌ آخر فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه،

قال مالك: يا عبد الله، بعث الله محمدًا ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقل من دين إلى دين" ^(٤).

أصبحت القضية إذاً عند هؤلاء تنقلًا من شخصٍ إلى شخص، ومن رأيٍ إلى آخر، وهو معنى قول

عمر بن عبد العزيز المتقدم: "من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل".

وقال مالك: "كان ذلك الرجل ^(٥) إذا جاءه بعض هؤلاء أصحاب الأهواء قال: أما أنا فعلى بينة من

ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاكٍ مثلك فخاصمه، قال مالك: وقال ذلك الرجل: يلبسون على

أنفسهم ثم يطلبون من يُعرفهم" ^(٦).

يعني بدينهم، يلبسون على أنفسهم أي: أهل الأهواء بالشكوك والظنون، ونحو ذلك، ثم يطلبون من

يُعرفهم بدينهم، ويُزيل عنهم الشكوك التي اعترتهم، فيأتون يعرضون ما عندهم من آراء وأهواء على

عقول الرجال.

وقال إسحاق بن عيسى الطَّبَّاع: "كان مالك بن أنس يعيبُ الجدال في الدين ويقول: كلما جاءنا

(١) الإبانة لابن بطة (٢/٥٥٥).

(٢) الإبانة (٢/٥٠٣).

(٣) الإبانة (٢/٥٠٤).

(٤) الإبانة (٢/٥٠٨).

(٥) يشير إلى أحد أئمة السلف لم يُسمه.

(٦) الإبانة (٢/٥٠٩).

رجلٌ أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ" (١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: "رأس مال المؤمن دينه، حيثما زال زال دينه معه، لا يخلفه في الرجال ولا يأت من عليه الرجال" (٢).

فهذا شأن أهل السنة لا يعرض أحدٌ منهم دينه ومعتقده على عقول الرجال وأهوائهم وآرائهم، وإنما يلتزم بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، على ضوء ما كان عليه سلف الأمة.

وقال ذكوان: "كان الحسن البصري ينهى عن الخصومات في الدين، وقال: إنما يُخاصم الشاك في دينه" (٣).

أما من ليس عنده في دينه شكٌ فليس له أي حاجة إلى شيء من هذه الخصومات.

وقال هشام بن حسان: "جاء رجلٌ إلى الحسن البصري، فقال: يا أبا سعيد تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرتُ ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه" (٤). أي: اذهب وابحث عن دينك، أما أنا فواثقٌ بديني، مطمئنٌ له، عارفٌ به، لست بحاجة إلى هذه الخصومات والجدل.

وقال أحمد بن سنان: "جاء أبو بكر الأصم إلى عبد الرحمن بن مهدي فقال: جئتُ أناظرك في الدين، فقال: إن شككت في شيء من أمر دينك فقف حتى أخرج إلى الصلاة، وإلا فاذهب إلى عملك، فمضى ولم يثبت" (٥).

وهذا فيه أن أهل السنة مشغولون بما هم عليه من حق، وبعبادة الله تبارك وتعالى، فقال له: إن شككت في شيء من أمر دينك فقف حتى أخرج إلى الصلاة، أي: أنا مشغول بطاعة الله، أريد أن أصلي، فقف حتى أخرج إلى الصلاة فلا شأن لي بك، وإلا فاذهب إلى عملك، فمضى الرجل ولم يثبت.

هذه جملةٌ من النقول المفيدة، نقلتها من كتاب الإبانة لابن بطة العكبري رحمه الله: وهو كتاب عظيم في بابه، وجميع هذه النقول عن السلف رحمهم الله توضح متانة الدين عندهم، وقوته في نفوسهم،

(١) الإبانة (٢/ ٥٠٧).

(٢) الإبانة (٢/ ٥٠٩).

(٣) الإبانة (٢/ ٥١٩).

(٤) الإبانة (٢/ ٥٠٩).

(٥) الإبانة (٢/ ٥٣٨).

وشدة رعايتهم وعنايتهم به، وعدم تعريضهم له إلى خصوماتٍ أو جدل، أو رأي منحرف، أو نحو ذلك، فكان ذلك من أعظم أسباب ثباتهم على الحق.

ثاني عشر: اعتقادهم - أي السلف - أن مسائل الاعتقاد من الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، واليوم الآخر، ونحو ذلك من الأمور الثابتة التي جاءت بها الرُّسل واتفقت كلمتهم عليها، فلا يدخلها نسخٌ أو تبديل، أو نحو ذلك؛ لأن العقيدة من باب الأخبار وباب الإخبار لا يدخله النسخ ولا يدخله التعديل، ولهذا فإن كلمة الأنبياء متفقَةٌ عليها من أولهم إلى آخرهم، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنبياءُ إخوةٌ لعلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١).

ثالث عشر: وضوح عقيدتهم - أي أهل السنة - ويُسرُّها وبُعْدُها عن الغموض، بينما العقائد الأخرى تراها يكتنفها أنواعٌ من الغموض وعدم الوضوح، وكثير من الشبهات. أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي واضحةٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، وهي تكتسب وضوحها من وضوح منبعها ومصدرها وسلامته.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «الصواعق» في بيان هذه العقيدة الحق ووضوحها لوضوح مصدرها، يقول: "مثل ضوء الشمس للبصر، لا يلحقها إشكال، ولا يغير في وجه دلالتها إجمال، ولا يعارضها تجويز واحتمال، تلج الأسماع بلا استئذان، وتحل من العقول محل الماء الزلال من الصادي الظمان، فضلها على أدلة العقول والكلام كفضل الله على الأنعام، لا يمكن أحدٌ أن يقدح فيها قدحاً يُوقِعُ في اللبس، إلا إن أمكنه أن يقدحَ بالظهيرة صحواً في طلوع الشمس"^(٢).

فالذي يريد أن يقدح في العقيدة الصحيحة السليمة المأخوذة من الكتاب والسنة مثله مثل رجل يأتي إلى الناس في وسط النهار، ويقول لهم: أريد أن أثبت لكم الآن أن الوقت ليلٌ وليس بنهار، هذا مثل لمن يأتي ويريد أن يشكك في صحة العقيدة الصحيحة السليمة المأخوذة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج].

رابع عشر: اعتبارهم واتعاظهم بحال أهل الأهواء، وقديماً قيل: "السعيد من اتعظ بغيره"، فأهل الأهواء الذي تركوا الكتاب والسنة، أورثهم هذا التركُ تذبذباً وانحرافاً، وتنقلاً واضطراباً، وعدم

(١) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، برقم: (٣٤٤٣).

مسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، برقم: (٢٣٦٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٩٩).

استقرار وثبات، ولا تجدُ لصاحب هوى ثابتًا واستقرارًا، وإنما هم دائمًا وأبدًا في تنقل، وأنقل هنا نقولًا عن أهل العلم في وصف حال أهل الأهواء، قال شيخ الإسلام: "أهل الكلام أكثرُ الناس انتقالاتًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع، وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليلٌ عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي ﷺ، قال: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطه له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحدٌ" (١).

فهذا فيه عبرة وعظة من حال أهل الأهواء أنهم لا قرار لهم ولا ثبات، وأنهم دائمًا وأبدًا في تنقل واضطراب وتذبذب.

قال قتادة: "لو كان أمر الخوارج هدىً لاجتمع، ولكنه كان ضلالًا فتفرق."

ومما وصف به أهل العلم أهل الأهواء، وبينوا فيه حالهم قول أبي المظفر السمعاني فيما نقله عنه التيمي وابن القيم، قال: "وأما إذا نظرت إلى أهل البدع رأيتهم متفرقين مختلفين، شيعًا وأحزابًا، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد، يُدعُ بعضهم بعضًا، بل يرتقون إلى التكفير، يُكفرُ الابن أباه، والأخ أخاه، والجار جاره، وتراهم أبدًا في تنازع وتباغض واختلاف، وتنقضي أعمارهم ولم تنفك كلماتهم" (٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في وصفه لأهل الأهواء: "وأيضًا المخالفون لأهل الحديث، هم مظنةُ فساد الأعمال، إما عن سوء عقيدة ونفاق، وإما عن مرض في القلب وضعف إيمان، ففيهم من ترك الواجب، واعتداء الحدود، والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلوب ما هو ظاهرٌ لكل أحد، وعامة شيوخهم يُرمون بالعظائم، وإن كان فيهم من هو معروف بزهدٍ وعبادة، ففي زهد بعض العامة من أهل السنة وعبادته ما هو أرجح مما هو فيه، ومن المعلوم أن العلم أصلُ العمل، وصحة الأصول توجب صحة الفروع" (٣).

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ: "كانوا يرون التلون في الدين من شك القلوب في الله ﷻ" (٤).

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص: ٥١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣).

(٤) الإبانة لابن بطة (٢/ ٥٥٥).

وقال مالك بن أنس: "الداء العضال، التنقل في الدين"، وقال: "قال رجل: ما كنت لأعبأ به، فلا تلعبن بدينك" ^(١).

فمن ينظر إلى حال أهل الأهواء يجد أن حالهم في حقيقة الأمر لعبٌ بالدين، تنقلٌ، آراءٌ، عقلياتٌ، أفكارٌ، أشياء من هذا القبيل متنوعة ومختلفة، لا ثبات لهم ولا قرار، حتى إن أحد أهل السنة جاء إلى أحد كبار رؤوس علماء الكلام في حيرة وشك واضطراب، فسأله: ماذا تعتقد؟ قال: أعتقد ما يعتقده المسلمون - أي مما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال له: وأنت مطمئنٌ بذلك ومُنشِرح الصدر؟ قال: نعم، قال: أما أنا فوالله ما أدري ما أعتقد؟ والله ما أدري ما أعتقد؟ وبكى حتى أخضل لحيته ^(٢).

وذلك لأن المسألة أصبحت جدلاً وحواراً وما إلى ذلك، فالذي ينظر في حال أهل الأهواء يجد فيهم العظة والعبرة، وكما قدمت: السعيد من اتعظ بغيره، فصاحب السنة يحمد الله على السنة، ويسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يثبت عليه.

خامس عشر: اتفاق كلمتهم وعدم تفرقهم، أما أهل الأهواء فقد فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون، [قال قتادة: "لو كان أمر الخوارج هدىً لاجتمع، ولكنه كان ضلالاً فتفرق" ^(٣)، ومثل هذا فقل في سائر أهل البدع]، أما أهل السنة فكلمتهم متفقة، وأمرهم مجتمع، وليس عندهم تفرقٌ أو اختلاف في دين الله، فهم على جادة سوية وصراطٍ مستقيم، يتعاهدون ذلك، ويتواصلون به، ويصبرون عليه.

قال أبو المظفر السمعاني: "ومما يدل على أن أهل الحديث على الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولها إلى آخرها، قديمها وحديثها، وجدتها مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار، في [بيان] الاعتقاد على تيسرٍ واحدةٍ ونمطٍ واحدٍ، يجرون فيه على طريقة لا يحدون عنها ولا يميلون عنها، قلوبهم في ذلك على قلب واحد، ونقلهم لا ترى فيه اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قل؛ بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟

(١) الإبانة (٢/ ٥٠٦).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٤٦).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ١٧٨).

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] (١).

فهذا أيضًا من الأسباب العظيمة التي أدت إلى ثبات أهل السنة على الحق، واستقامتهم على العقيدة الصحيحة، وسلامتهم من الانحراف والتلون والتغيير.

وهذا الأمر هو آخر النقاط التي أردتُ بيانها، لكنني أقف عنده وقفة أوضح فيها بعض الجوانب من الاعتقاد التي تبين اتفاق أهل السنة والجماعة على العقيدة، وسيرهم فيها على وتيرة واحدة من أولهم إلى آخرهم، إذا نظرت في كلامهم في هذا الزمان، ونظرت في كلامهم أول الأزمان، في زمن النبي ﷺ، تجد ما عندهم شيء واحد؛ لأنه مأخوذ من مشكاة واحدة.

فقد قال الإمام مالك رحمه الله: "ما لم يكن ديناً زمن النبي ﷺ فلن يكون اليوم ديناً، ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها".

فأنت إذا نظرت إلى عقيدتهم في هذا الزمان، وفي جميع الأزمان الماضية، تجدها عقيدة واحدة، وأضرب على ذلك بعض الأمثلة.

فمثلاً: إذا جئت إلى جانب التوحيد والإخلاص، إخلاص العمل لله -تبارك وتعالى-، تجدهم كلهم من أولهم إلى آخرهم دعاة إلى التوحيد، كلهم يدعون إلى إخلاص العمل لله، كلهم يحذرون من الشرك بالله وصرف شيء من العبادات لغير الله.

لا ترى فيهم من يدعو إلى شيء من الشرك أو المخالفة للتوحيد، كما يفعله كثير من أهل الأهواء، يدعون إلى أشياء من هذه الانحرافات، ويسمون بها بغير أسمائها؛ فيسمون أنواعاً من الشرك توسلاً، أو شفاعاً، أو نحو ذلك.

مثال آخر: أنهم جميعاً متفقون على الحث على السنة، والنهي عن البدع والأهواء، لا ترى فيهم إلا الداعية للسنة، المحذر من البدع، لا تجد فيهم من يحسن الأهواء ويرغب في البدع، أو من يحاول أن يبين أن للبدع محاسناً، أو نحو ذلك، هذا لا يوجد في أهل السنة، وإنما الجميع من أولهم إلى آخرهم يحذرون من البدع والأهواء، ويدعون الناس إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص: ٥١٨).

مثال ثالث: إيمانهم بأسماء الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وصفاته؛ تجدهم من أولهم إلى آخرهم على وتيرة واحدة، يُثبتون لله ما أثبتته لنفسه، وما أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، ولا يُحرِّفون ولا يُعطلُّون ولا يُكيِّفون ولا يُمثِّلون، وقاعدتهم في ذلك كما أخبر الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، فكلهم في هذا الباب على وتيرة واحدة.

أما من سواهم فتجد فيهم المحرف أو المعطل أو المكيّف أو الممثل، أو غير ذلك من الطرق مع اختلاف عريض لدى كل أهل مذهب من هذه المذاهب.

مثال أخير: اتفاق منهمجهم في طريقة الاستدلال، وهذا أمر سبق أن أوضحته، فطريقتهم في الاستدلال واحدة، ومعتمدهم فيها واحد، وهو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وفي ختام هذه الكلمة أتوجه إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن يلحقني وإياكم بالصالحين من عباده، وأن يمن علينا وعليكم بلزوم السنة واتباع أثر سلف الأمة، وأن يُجنِّبنا الأهواء والبدع، وأن يمنحنا صحة في الاعتقاد، وسلامة في الإيمان، واستقامة في السلوك، وحُسنًا في الآداب والأخلاق، وأن يُوفِّقنا جميعًا بتوفيقه، وأن يهدينا جميعًا سواء السبيل، وأن يجعلنا هداة مهتدين، من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وأسأل الله أن يتقبل مني ومنكم صالح الأعمال، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله ونبیه محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



[إجابة على سؤال]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد،

أولا قبل الإجابة على السؤال من باب المشاركة حول الكتاب الذي باسم «الثوابت المتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي»، هذا الكتاب من وجهة نظر مؤلفه وكاتبه أراد أن يضبط مسيرة العمل الإسلامي بوضع أمور أو أصول أو ثوابت لا يكون فيها بينهم خلاف، وأمور وصفها بأنها متغيرات وهذه الأمور لا ينبغي أن يكون الخلاف فيها سببا للتنازع والتباغض وخلخلة الصف وتفريق الكلمة ونحو ذلك.

وهو قصد جمع الكلمة جمع كلمة المسلمين وتقريب وجهات النظر؛ لكن مع ذلك حقيقة ينبغي أن

يتنبه المسلم إلى ما سبق أن أشرت إليه في هذه الكلمة أن جمع الكلمة واتفاق أهل السنة إنما كان لاجتماعهم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وأنا حقيقة في نسي شيء من وصف بعض الجوانب من الدين بأنها متغيرة أو أنها تقبل التجديد؛ لأن هذا الاصطلاح الذي يذكره البعض أدخلوا تحته أموراً لا تقبل الجدل، ومن الأمور المستقرة ومن الأمور المتكاثرة دلائلها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ومن ذلك على سبيل المثال أن صاحب الكتاب ذكر في غير الثوابت أقسام التوحيد الثلاثة، وقال: إن هذه الأقسام الثلاثة وأن هذا التقسيم الثلاثي للتوحيد اصطلاح حادث ذكره بعض أهل العلم ليس عليه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله ﷺ؛ بل قال في الكتاب: إننا لا نعرف حدود فاصلة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأنا حقيقة لما أقرأ مثل هذا الكلام أتعجب غاية العجب كيف يكون الأخذ بمسيرة العمل الإسلامي مع التوهين بهذه الأصول الثابتة الواضحة المستقرة البينة التي تكاثرت دلائلها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

عندما يقرأ المسلم الفاتحة يجد فيها هذه الأقسام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]، أقسام التوحيد الثلاثة، وهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد كما ذكر أموراً اصطلاحية؛ بل هي في حقيقة أمرها حقائق شرعية علمت بالتبعية والاستقراء من كتاب الله. فأشرت بما يتعلق بقول ذلك الكاتب (إن أقسام التوحيد اصطلاحية) أمر اصطلاح عليه بعض أهل العلم، وأوضحت أن هذا ليس صحيحاً؛ بل إن هذا التقسيم تقسيم شرعي معلوم بالتبعية والاستقراء لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وهناك أمور كثيرة تعلم بالاستقراء كأركان الصلاة، أركان الحج، شروط لا إله إلا الله؛ يعني أركان كثير من العبادات، شروط قبول العمل، أمور كثيرة يأخذها أهل العلم ويعرفونها بالتبعية والاستقراء لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والاستقراء عندما يكون تأملاً فهو حجة، فوصف أقسام التوحيد بأنها أمر اصطلاحية اصطلاح عليه بعض أهل العلم هذا فيه توهين من هذا الأصل وتقليل من شأنه، وهذا يسبب عكس ما كان يريد أولئك، ويسبب خلخلة في الصف وتفريق لكلمة المسلمين.

ولهذا من الواجب على كل من يتصدّر لمسيرة العمل الإسلامي أن ينصح للمسلمين، وأن يكون عوناً لهم بعد الله ﷻ على الثبات على الحق والاستقامة عليه، على ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أما بالنسبة لما يتعلق بالسؤال وأن ذلك الأثر أن البعض قد يستدل به على تهوين من الرد على المخالف، فالجواب أن من يستدل بهذا الأثر على التهوين من الرد على المخالف يكون استدلاله به في غير بابه، والذي ينبغي على من يطالع أقوال السلف أن لا يحمل كلامهم ما لا يحتمل.

فهذه الكلمة ونظائرها مما نقلت بعضه أو شيئاً منه، المقصود به عدم تعريض الدين أو جعل الدين عرضة للخصومات، الدين رأس مال المسلم، وأثمن شيء عنده، فلا ينبغي له أن يعرضه للجدل والخصومات، وأن يجعله مجال للأخذ والرد والقبول والمنع.. ونحو ذلك، فالدين ثابت ومستقر ودلائله بينة ولا ينبغي أن يُجعل عرضة للخصومات، ومن جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل كما بين ذلك السلف.

أما الرد على المخالف فالنقول عن السلف في ذلك كثيرة، ولما سئل الإمام أحمد عن ذلك قال: إذا سكت أنت وأنا من يبين للناس؟ فالرد على المخالف هذا من باب النصيحة للمسلمين، وأيضا من باب إمطة الأذى عن طريقهم؛ لأن البدع والأهواء تؤذي المسلمين في طريقهم، فينبغي للعلماء أن يميّطوا هذا الأذى وأن يبينوا للناس الحق وأن يردوا الباطل على أهلها، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]، وعملاً بقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) والنصوص في هذا المعنى كثيرة.



(١) البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطالحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٦٩٧). مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨).

الفهرس

٢	المقدمة.....
٢	مكانة العقيدة الإسلامية.....
٣	موضوع المحاضرة.....
٤	أسباب ثبات العقيدة.....
٥	السبب الأول: الاعتصام بالكتاب والسنة.....
٧	السبب الثاني: الاعتقاد بأن الكتاب والسنة يشتملان على المعتقد الحق.....
٨	السبب الثالث: الرجوع إلى الكتاب والسنة عند النزاع.....
٨	السبب الرابع: سلامة الفطر.....
٩	السبب الخامس: صحة العقول.....
١٠	السبب السادس: ثبات العقيدة في النفوس وسلامتها.....
١١	السبب السابع: الارتباط بفهم السلف الصالح.....
١٢	السبب الثامن: التوسط والاعتدال.....
١٣	السبب التاسع: عدم تقديم العقول والآراء والأذواق على الكتاب والسنة.....
١٤	السبب العاشر: حسن الصلة بالله والارتباط به.....
١٥	السبب الحادي عشر: اليقين التام بالمعتقد والبعد عن الخصومة.....
١٨	السبب الثاني عشر: اعتقاد أن أمور العقيدة من المتفق عليها بين الرسل.....
١٨	السبب الثالث عشر: وضوح العقيدة ويسرها وبعدها عن الغموض.....
١٨	السبب الرابع عشر: الاعتبار والاتعاظ بحال أهل الأهواء.....
٢٠	السبب الخامس عشر: اتفاق الكلمة وعدم التفرق وأمثلة على ذلك.....
٢٢	إجابة على سؤال.....
٢٥	الفهرس.....

